الأيقـــونات*

محمد القيسي

(...) بعد عودتي من لندن للإقامة في عمّان، زرتُ فلسطين المحتلة، اعني رام اللّه وغزة، لأرى واعرف اكثر... عدا ما نعرفهُ سياسياً. وما رايتُ يُدْمي الروحَ والقلبَ، ويغمر ما تبقى من العمر بالمرارة. رايتُ المكانَ الأول، والبيتَ الأول مسقطَ الحزن والوعي، مثلما رايتُ طرقي وكرومي. وما اشدَّ ما احسستُ من غربةٍ هناك: لكانّما الأمكنةُ تموت ايضاً، ولا تحيا إلا فينا. ولقد رجعتُ بعملٍ شعريٍّ عنوانه الأيقونات... هنا بعضها تحيةً لـ الآداب(...).

(من رسالة بعثها الشاعر إلى رئيس التحرير)

أيقونة رمّان أريحا

إنْ كنتُ توقّفتُ قليلاً،
عن إثمِ الأسفارِ،
فلا أتوقّفُ عن إثمِكْ

من بين مُحبِّيك،
رسولُ أغانيك أنا
ومرتِّلُ غَيمِكْ.

أهتفُ باسمكْ
يا زهرةَ رمّان أريحا
وقَرَنفُلَ أُمكْ.

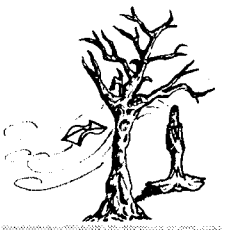

أيقـــونة الوحيدة

وَحيدةُ أهْلِها
وتُطوّقُ الأحزانُ غُرّتَها

عَلى أطرافِها تَنمو المزارعُ،
مثلَما الدُفلى على
طُرقاتِها تَنمو
ويَنمو
هَا هُنا الجُمّيزُ
والأطفالُ
يَنمو اليأسُ في كلِّ الجهات،
سَليلُ هَذا البؤسِ هَذا اليأسُ،
تَنمو النَّاطحاتُ،
ويَختفي البَحرُ.

وَحيدةُ أهلِها
وتُطوّقُ الأحزانُ غُرّتَها
ولا فَجرُ!

أيقـــونة رام الله

لَمْ يَصلوا مثلي رامَ اللّهَ،
ولَم تَدرُجْ قَدماكِ مَعي
لأُريكِ منابتَ حُزني
وتَفتُّحَ أوراقي الأُولى في «فندقِ حربٍ»
وأُريكِ طريقَ الإرسالِ وكيفَ
تفتّتَ قلبي
حولَ كنيسةِ «مدرسةِ الإيمانِ»
هُنا كُنتُ أُشاركُها الصَّلَواتِ،
بَلى
كنتُ أُشاركُها الصَلَواتِ،
ولَمْ أكُ لأقبّلُ عندَ صَلاةِ الصُّبحِ،
يدَ القَسّيسِ المصريِّ اللهجةِ،
كانَ يُحدّقُ في عَينيَّ وَينعتُني
سرّاً
بالجاحدِ والناكرِ خُبزَ الربِّ إلى
أن طَرَدوني
مَنْ نَومي وَطَعامي في المدرسةِ،
وَاصلتُ إلى ذلكَ أشغالي

* ـ من عمل شعري بالعنوان نفسه، أُنجز ما بين تموز ١٩٩٨ وكانون الثاني ١٩٩٩، في الجزء المتاح من فلسطين المحتلة، ما بين غزة ورام الله والبيرة ومخيم الجلزون وأريحا.

وَوقُوفي
عندَ بُكائيَّاتِ السيَّابِ...

وعندَ منارةِ رام اللّه، منارتِها الغائبةِ الآنَ،
هُنا في هَذي النُقطةِ بالذّات،
هُنا عَثرتْ أبصاري بالرايةِ،
رايةِ غرناطَةَ،
وعَرفتُ قريباً لي عَبْرَ مناحَاتِ
الموتِ هنا
بالذّاتِ هنا، قلتُ لَهُ:
يا شَقيقَ أبي المقتولِ بعشْرِ سنينٍ
بعدَكَ
خُذْني كمُريدٍ
خُذْني لأكونَ قريباً من شُرفتِكَ
وأعراسِكَ
خُذْني...

لم نأتِ الى رام اللّه معاً
لأريكَ الصيفَ فلسطينيّاً من زَمنٍ
آخرَ
وأنا في «منزهِ نعّومٍ» مَلكًا في
البَهوِ
أدورُ بآنيةِ القهوةِ بينَ الروّادِ
وقد جَرّعوا
مَا يكفي منْ أنبذةِ اللَّطْرونِ
وَمَالوا.

لم نَصلِ الجلزونَ، هُنا مَسقطُ
حُزني الأوّلِ
حتى أخذتْني الصَحراءُ إلى جَوْفِ
العالمِ
وَمَعاً لمْ نَصلِ الخارطةَ هنا
لأقولَ عَلَى مرأىً منْ هذا الذَبحِ:
أحبُّكِ..

أيقونة باب البيرة

بينَ أبوابِ غرناطةَ الأمسِ بابٌ
وَقفتُ به ذاتَ عامٍ سَبَقْ.

كنتُ وَحدي، سوى شاهدٍ من
نَواحي البلادِ
تَجولُ فرشاتُهُ في دَمي وأجولُ،
أشارَ الدّليلُ إليهِ
ارتعشتُ قليلاً
ورَقْرَقَ قلبي الشَجى، فَنطقْ

كانَ أسلافيَ الغابرونَ وحيدينَ
يَرْوونَ لي
وَأنا أتأمّلُ خيطَ الشَفَقْ
دامياً بالغُروبِ وأسمعُ عَزفاً شَفيفاً
فقلتُ وداعاً للوركا وَداعاً لهذا
الحَبَقْ.

ثمَّ ها أنذا في مَدينةِ قلبي
في البيرةِ الآنَ وحدي
وَما منْ أحدْ

أو شَريكٍ يُطامنُني
غَيرُ حبلٍ
يَلفُّ المدينةَ، أمْحُهُ
بِمئاتِ العُقدْ!

أيقونة شارع المكتبة

لمْ أجدْ في المكانِ مكاناً أليفاً
لحزنِ القَطا
لمْ أجدْ غُرْفةً لمتاعي القليلْ
لم أجدْ فندقاً كنتُ أعرفُهُ،
منْ زمانٍ طَويلْ
لم أجدْ مَنْ ألحَّتْ على أن تَرَاني
تَركتُ على بابها جُملةً،
وَنَويتُ أروحُ إلى شارعِ المكتبهْ.

شَبَحانِ يَلوحَانِ لي في غُبارِ البَعيدِ
وها.. يُصبحَانِ على مَقْرُبَهْ

وأكادُ ألامسَ ظِلَّهما
ـ مرحبا
* مرحبا

يختفي الشَبَحان
وأسْحَبُ في كَلَلٍ خُطوتي المُتْعَبَهْ

كانَ يحيى
وكنتُ أنا
يافعيْنِ
سَكَنّا القصيدةَ والسردَ قبلَ
الوصولِ الى حَمَأ التجربهْ
هوَ ذا شَارعُ المكتَبهْ
لم أجدني ولاَ كانَ يحيى معي
لم أجدْ نَسْمَةً عَبَرتْ في قميصي
وأشعلَ إيقاعُها أضْلُعي
لمْ أجدْهَا.

وأدركتُني في البَعيد بعيداً
وأدركتُ يحيى وَحيداً
وَلا مَصْطبهْ

لم أجدْني
وَلَمْ أجدِ المكتَبَهْ!

أيقونة سينما دنيا

سينما دنيا (١)
ها هيَ بعدَ رمادِ السنواتِ أمامي
كانت أوّلَ دارٍ أعرفُها
أوّلَ أعتابي للأغنيةِ، وأوّلَ
أقفاصي.

سينما دنيا
رَبطتْني بهواجسَ أُولى حولَ المرأةِ
والأسفارِ،
الى أن عُفْتُ الجلزونَ(٢)
تَطلّعتُ إلى دورٍ لي في الأرضِ،
فكوّنتُ عصابةَ زعرانٍ، من
خمسةِ أشخاصِ
وسطوتُ بهم،
فكروماُ القرويّينَ على مدِّ
الأبصارِ:
التفّاحُ
البرقوقُ
التّينُ!
بناتُ الإعداديّةِ،
ما كنّا لنهابَ، ولكنْ بعد قليلٍ،
أمسَكَنَا الناطورُ،
وخلاّنا كالجبنةِ، خمسةَ أقراصِ.

وكبرتُ على أطرافِ الأشياءِ
نَمَوْتُ كما يَنمو العُشبُ على الماءِ،
غَزاني الحبُّ، فشفَّ القلبُ،
وساقَ خُطايَ إلى أوّلِ درجاتِ
خَلاصي.

سينما دنيا
هي ذي مُغلقةٌ كالدُنيا
دارتْ كالأيامِ وعادتْ لي
وأنا عُدتُ على قَدميْنِ منَ
الخَشبِ الفارغِ،
أبحثُ ثانيةً عن دَوْرٍ لي
وأُفكّكُ أقفاصي!

١ ـ بعد ثلاثة أيام فقط من كتابة هذه الأيقونة، وجدتُني في الشارع أمام سينما دنيا أقف مصعوقاً وأنا أشاهد كيف تتهاوى على الأرض، ركاماً هائلاً من دم وذكريات وتواريخ. فلمن أصْرُخ؟ لقد كانوا يهدمون البناية كلها، ويغيب مَعْلَمٌ ثقافيٌّ هامٌ من معالم طفولتي ومعالمِ المدينة التي أحب، وهي التي تُعتبر أقدمَ دار سينما في رام الله. كان ذلك يوم ١٩٩٨/٨/٧ لتستحيل، من بعدُ، إلى كاراجٍ عامٍ للعربات!

٢ ـ هو مخيم الجلزون، حيث عاش الشاعرُ ما بين ١٩٥٩ و١٩٦٥.

أيقونة غزّة

تَغرقُ غزّةُ في البحرِ،
ولا برّ لها
لا ساحلَ للأحلامِ،
وغزّةُ عشّاقٌ منسيّونَ،
مَرايا مُنكسرَهْ.

أيُّ حوارٍ يتضافَرُ بينَ البحرِ
وغزّةَ،
إذ يشتبكانِ مَعَ العَتمة
ويَصيرانِ إلى قَفَصٍ لَيْليٍّ،
وَشواهدَ مُنتشرَهْ
ما بينَ الرملِ وبَينَ الماءِ تَجولُ،
بَريداً لا يَصلُ إلى يومٍ،
وتُويجاً يَذبُلُ
أو شجرَهْ

تَركتْها الريحُ إلى العُزلةِ،
فَارتَجفتْ
مُنتحرَهْ!

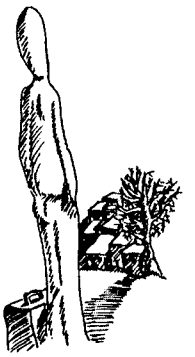

أيقونة الخروج

وخرجتُ لأعرفَني وأرى
وخَرجتُ بلا زادٍ
أتأمّلُ مسكوناً بالأبدِ الحيِّ صِراطَ
النَزفِ.
طريدَ الأنفاسِ خرجتُ
مَسرَّاتي خَلفي
وَحدي أتأمّلُ نورَ تُويجاتِ
البستانِ السريِّ
هنا انشقَّ القلبانِ على مرمى
حجرٍ
منْ نهرِ الآلهةِ ووردةِ جَلْجامشَ
وتفتّح صَدْرانِ بِخَمْرِ الفجرِ
هُنا نَامَا لَيلتَنا الأولى مثلَ
شقيقينِ اغتَسَلا
بحنانِ الصمتِ وَفاضَا فوقَ سريرِ
الفُندقِ
لِيفيضَا في الأمصارِ، هنا احتفَلا
بخُيوطِ نهارِهما الأولِ
مضفورَيْنِ بآياتِ التكوينِ.

خَرجتُ لأعرفَني
وَخَرَجتُ بلا زادٍ منْ غزّةَ
رُحتُ أدبُّ إلى جبلِ الفوسفاتِ
أَدقُّ على
أبوابِ الأبديةِ كي تصحو حمدةُ
أبتهلُ إلى حرّاسِ الكونِ السفليِّ
بأنْ
يَدَعوا لي رِفقتَها، ويُضيئوا
بمعاولهمْ
أدراجَ العتماتِ فتصعدُ نحوي
لأتمَّ كتابي:
ـ يا نُظّارَ المملكةِ الغامضةِ
أعينوني كَوحيدِ الأرضِ
أعينوا هذا الابنَ على ما
تَبلوهُ الأيّامُ وراءَ البوّابةِ.
أعمى
وأسيراً في دَوّاماتِ العشقِ أحومُ
ألا يُدركُني أحدٌ
فَأحطَّ يديَّ على الأيقوناتِ
ولاَ يَتواصَلُ مفقودي
صَوتي يَتكَسَّرُ فوقَ الرملِ
الفوسفاتيِّ
صَلاتي تَتلاشَى في الريحِ
ويَنحلُ عُودي.

فلسطين